المُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. أما بعد:

فإن المتأمل اليوم في عصرنا الحاضر وما فيه من الصراعات، يجد أن الصراع بين الحق والباطل قد بلغ أشده، وأن ملل الكفر قد جمعت كل إمكانياتها ضد عدو واحد، ألا وهو الإسلام ودعاته الصادقون، الذين يصفونهم تارة بالمتطرفين وتارة بالأصوليين وتارة بالإرهابيين.

وإن المراقب للأحداث التي ظهرت في العقود الأخيرة ليرى أنها تتسم بسمتين اثنتين:

١- التسارع الشديد والمفاجآت التي تصحبها، إلى حد أن المتابع لهذه الأحداث لا يفتأ يسمع بحدث ويبحث عن الموقف منه، إلا وتفجؤه أحداث أخر، تنسيه أو تشغله عن الحدث الأول، كما تتسم بضخامتها وشدة آلامها.

عن يحيى بن وثاب قال: قال حذيفة رضي الله عنه: «والله لا يأتيهم أمرٌ يضجون منه؛ إلَّا أردفهم أمرٌ يُشغِلُهم عنه»[1].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٦٢)..

٢- إن أغلب هذه الأحداث -إن لم نقل كلها- تقع في المنطقة الإسلامية والمسلمون فيها هم المستهدفون، وفي ظل هذه الأحداث يجب على دعاة الحق والمجاهدين في سبيل الله أن يقفوا طويلاً مع كتاب الله ﷻ وما تضمن من الهدى والنور، ومن ذلك ما تضمنه من السنن الربانية المستمدة من دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وذلك لأن في معرفتها والسير على هداها أخذاً بأسباب النصر والتمكين والفلاح، ونجاة مما وقع فيه الغير من تخبط وشقاء، وفي الغفلة عنها تفريط في الأخذ بأسباب النجاة، وحرمان التوفيق في النظر الصحيح للأحداث والمواقف، وليس المقصود هنا التفصيل في موضوع السنن الربانية فهذا له مقام آخر، وإنما المقصود هو الاستضاءة بهذه السنن في الوصول إلى الموقف الحق، الذي نحسب أنه يرضي الله ﷻ، وذلك في الأحداث الساخنة التي تدور رحاها اليوم في حرب الإسلام وأهله.

وأكتفي هنا بالتنبيه على سنة واحدة من سنن الله تعالى، يجب التذكير بها ونحن في خضم هذه الأحداث وبفهم هذه السنة يزول الاستغراب مما يحدث، ونتمكن من الفهم الصحيح لحقيقة هذه الهجمات المتلاحقة من أعداء الإسلام ودوافعها وحكمة الله ﷻ في إيجادها؛ لأن من أسمائه سبحانه: العليم الحكيم، ومن آثار هذين الاسمين الكريمين اليقين بأن أي شيء يحدث في ملكه سبحانه، فإنما هو بعلم الله تعالى وإرادته وحكمته البالغة. وهذه السنة التي أعنيها هنا، والتي هي مقتضى حكمته سبحانه وعلمه هي: سنة المدافعة والصراع بين الحق والباطل:

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

ويقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

وعن عياض بن حمار المُجاشعي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا؛ كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ**» الحديث[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

في هـذه الآيـات والحديـث أبلـغ دليـل عـلى أن الـصراع حتمي بين الحـق وأهله مـن جهة، والباطـل وأهله من جهـة أخرى، هذه سـنة إلهية لا تتخلـف، ووقائـع التاريـخ القديم والحديث تشـهد عـلى ذلك، وهذه المدافعة وهذا الصراع بين الحق والباطل إن هو إلا مقتضى علمه سـبحانه وحكمتـه وعزته ورحمته ولطفه، وهو لصالح البشرية وإنقاذها من فسـاد المبطلين، ولذلك ختم الله ﷻ آية المدافعة في سـورة البقرة، بقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، حيث لم يجعل الباطل وأهله ينفردون بالناس، بل قيض الله له الحق وأهله يدمغونه حتى يزهق، فـالله تعـالى يقـول: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨].

إن الذيـن يطمعـون في الإصـلاح ودرء الفسـاد عن الأمـة من دون هذه السـنة -أعني سـنة المدافعة مع الباطل وأهل الفساد- إنهم يتنكبون منهـج الأنبياء في الدعوة إلى الله ﷻ الذي ارتضاه واختاره لهم، وإن الذين يؤثرون السـلامة والخوف مـن عناء المدافعة مع الفسـاد وأهله، إنهم بهذا التصرف لا يسـلمون من العناء والمشـقة، بل إنهم يقعون في مشـقة أعظم وعناء أكبر يقاسـونه في دينهم، وأنفسـهم، وأعراضهـم، وأموالهم، وهذه هي ضريبة القعود عن مدافعة الباطل، وإيثار الحياة الدنيا.

والمدافعـة بين الحق والباطل تأخـذ صوراً متعددة: فبيان الحق وإزالة الشبه ورفع اللبس عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر مدافعة، وبيان سـبيل المؤمنين وسـبيل المجرمـين مدافعة، والصبر

والثبات على ابتلاء الأعداء من الكفرة والظلمة مدافعة، ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله ﷻ على رأس وذروة هذا المدافعات؛ لكف شر الكفار وفسادهم عن ديار المسلمين ودينهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

واليوم لم يعد خافياً على كل مسلم ما تتعرض له بلدان المسلمين قاطبة من غزو سافر وحرب شرسة على مختلف الأصعدة، وذلك من قبل أعدائها الكفرة، وأذنابهم المنافقين، فعلى الصعيد العسكري ترزح بعض بلدان المسلمين تحت الاحتلال العسكري لجيوش الكفرة المعتدين، التي غزت أهل هذه البلدان في عقر دارهم كما هي الحال في أفغانستان والشيشان والعراق وفلسطين، وسوريا، وعلى صعيد الحرب على الدين والأخلاق، وإثارة الشبهات والشهوات ولبس الحق بالباطل فإن ذلك لم يسلم منه بلد من بلدان المسلمين.

وقد تقرر عند أهل العلم أن الجهاد يتعين على المسلمين إذا غزاهم الكفار في عقر دارهم، ويصبح واجباً على كل مسلم قادر أن يشارك في دفع الصائل عن بلده بكل ممكن، فإن كان الغزو عسكرياً وبالسلاح وجب رده بالقوة الممكنة والسلاح، وإذا كان الغزو بسلاح الكلمة والكتاب والمجلة والوسائل الإعلامية الخبيثة بأنواعها المقروءة والمسموعة والمشاهدة منها التي يباشر الكفار بعضها وينيبون إخوانهم من المنافقين في بعضها، فإن الجهاد بالبيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمدافعة والتحصين يصبح واجباً عينياً على كل قادر من المسلمين كل بحسبه.

وحينما نربط هذه السنة ومقتضى أسماء الله الحسنى بهذه الأحداث التي تزامنت وتلاحقت وتشابهت قلوب أصحابها في الهجوم على دين الإسلام وأهله وبلدانه، تتضح لنا هذه السنة بجلاء، وحينئذ يرتفع الاستغراب مما يقوم به الكفار من هجوم وافتراء على دين الإسلام، ويشمر المسلم للدخول في الصراع ضد أعداء الله تعالى بما يستطيع من نفسه وماله ولسانه وقلمه. قال ﷺ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**»(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة والبيان والرأي والتدبير والصناعة، فيجب بغاية ما يمكنه)(٢).

وإن التقاعس أو التشاغل أو التخذيل من القادرين على هذه المدافعات من ضروب الجهاد يخشى أن يكون من جنس التولي يوم الزحف، وتقديماً للدنيا الفانية على محبة الله ﷻ ورسوله والجهاد في سبيله -تعالى-، ولا يبعد أن يكون من المعنيين بقوله -تعالى-: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

---

(١) رواه النسائي (٣٠٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣٠٩٠).
(٢) «الاختيارات الفقهية» (ص٤٤٧).

هذا وإن كانت هذه الآيات في جهاد الكفار في ساحات القتال فإن ذلك لا يمنع من أن تشمل أيضاً القاعدين عن جهاد الكفار والمنافقين بالبيان والمدافعة لأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الرديئة، والوقوف أمام وسائلهم ومخططاتهم المختلفة وتحصين الأمة وتحذيرها منها، فقد قال الله ﷻ آمراً نبيه محمداً ﷺ في سورة مكية بمجاهدة الكفار بالقرآن قبل فرض الجهاد عليهم بالقتال؛ وذلك في سورة الفرقان، حيث يقول الله ﷻ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

ويحسن في هذه المقدمة التأكيد والتذكير بالأصل السادس من أصول الإيمان، ألا وهو الإيمان بالقدر خيره وشره، وبيان أركانه ومراتبه ووسطية أهل السنة والجماعة فيه بين القدرية والجبرية.

إن من أصول الإيمان التي لا يصح إيمان عبد إلا بالإيمان بها، الإيمان بالقضاء والقدر، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، وذلك في قوله ﷺ في حديث جبريل الطويل: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1]. وللإيمان بالقدر أربع مراتب:

الأولى: الإيمان بأن الله ﷻ بكل شيء عليم، عالم ما كان وما يكون وكيف يكون بعلمه الأزلي الأبدي، فلا يتجدد له علم بعد جهل، ولا يلحقه نسيان بعد علم.

الثانية: الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة. قال الله تعالى عن المرتبتين السابقتين: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

---

(١) «صحيح مسلم» (٨).

الثالثة: الإيمان بأن الله ﷻ قد شاء كل ما في السموات والأرض، لا يكون شيء إلا بمشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء وموجده.

وهذه المراتب الأربع شاملة لكل ما خلق الله ﷻ. ومن ذلك أفعال العباد. فكل ما يقوم به العباد من أقوال وأفعال أو تروك، وما يجري في ملكوت السموات والأرض فهي معلومة لله تعالى مكتوبة عنده، والله تعالى قد شاءها وخلقها، وهذه عقيدة السلف الصالح الذين هم وسط بين القدرية الذين ينفون خلق الله لأفعال العباد، ويقولون: إن العبد يخلق أفعال نفسه، وبين الجبرية الذين يقولون بأن العبد مجبور على أفعاله وليس له فيها اختيار، قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]. ومن ذلك عنوان هذه الرسالة المأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

ومشيئة الله تعالى صادرة عن علمه وحكمته وعدله وعزته ورحمته، بل إن الخلق كله والأمر كله هو مقتضى أسماء الله ﷻ الحسنى، وإن ظهر في بعض مفعولاته من شر تكرهه النفوس، فإن فيه الرحمة والحكمة والعدل، فنفس قضاء الله تعالى ليس فيه شر أبداً؛ لأنه صادر عن عدل ورحمة وعزة

وعلم وحكمة، وإنما يكون الشر من مقضياته لقوله ﷺ: «**والشَّرُّ ليسَ إليكَ**»[1]. وقوله ﷺ: «**وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ**»[2]، ومع ذلك فإن الشر في المقضيات ليس شراً خالصاً، بل هو شر من وجه وخير من وجه آخر، أو شر في محله خير في محل آخر.

والمقصود من هذه المقدمة التي لابد منها الدخول منها إلى موضوع هذه الرسالة، وهو بيان أن ما يجري اليوم من أحداث مؤلمة ونوازل عظيمة في بلدان المسلمين، إنما هي بعلم الله ﷻ وكتابته لها ومشيئته وخلقه لها، وله سبحانه الحكمة البالغة في خلقه وأمره، ومن ذلك ما نشهده من صراع بين الحق والباطل، وما تمخض عن ذلك من آلام وآمال وأحداث ونوازل.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (وأسماؤه الحسنى تقتضي آثارها، وتستلزمها استلزام المقتضي المُوجب لمُوجبه ومُقتضاه، فلابد من ظهور آثارها في الوجود، فإن من أسمائه: الخلَّاق المقتضي لوجود الخلق، ومن أسمائه الرزاق المقتضي لوجود الرزق والمرزوق، وكذلك الغفار والتواب والحكيم والعفو، وكذلك الرحمن الرحيم، وكذلك الحكم العدل، إلى سائر الأسماء، ومنها الحكيم المستلزم لظهور حكمته في الوجود، والوجود متضمن لخلقه وأمره، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] فخلقه وأمره صدرا عن حكمته وعلمه، وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره، فمصدر الخلق والأمر عن هذين الاسمين

(١) «صحيح مسلم» (٧٧١).

(٢) رواه أبو داود كتاب الوتر (١٤٢٥)، والترمذي أبواب الوتر وصححه الألباني.

المتضمنين لهاتين الصفتين، ولهذا يقرن -سبحانه- بينهما عند ذكر إنزال كتابه، وعند ذكر ملكه وربوبيته، إذ هما مصدر الخلق والأمر)[1].

ومشيئة الله ﷻ صادرة عن حكمة بالغة وعلم شامل، والعارفون لربهم سبحانه ولأسمائه الحسنى وصفاته العلا يوقنون بذلك، ولذا فهم يحسنون الظن بربهم ويحمدونه على كل ما يقدره، ويوقنون بأن أسماءه وصفاته وأفعاله كلها حسنى، ممتثلين لأوامره الشرعية مجتنبين لما ينهاهم عنه، وذلك لكونها من الأسباب الشرعية التي أمرهم الله بها لجلب خيري الدنيا والآخرة، ودفع شري الدنيا والآخرة.

ولبيان هذه المعاني العظيمة التي قد يجهلها أو يغفل عنها كثير من المسلمين، أكتب هذه الرسالة الموسومة بقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ**﴾ لتوضح هذه المسلمات، ولاسيما في ظل الأحداث والنوازل التي تعيشها أمتنا المسلمة، والتي كادت أن تعصف برياحها كثير من القلوب، وكادت أن تزل بها كثير من الأقدام، ولو شاء الله ﷻ ما أوجدها، ولكنها مقتضى حكمة الله ﷻ وعلمه وعزته ولطفه ورحمته. ولكي تتضح أهمية هذا الموضوع أذكر فيما يلي بعض الأمور التي دفعت إلى كتابة هذه الرسالة:

الأمر الأول: ما تشهده بلدان المسلمين من حوادث جسيمة ومحن شديدة وغزو مكثف من أعداء الدين من الكفار والمنافقين آلت ببعض المسلمين إلى حالة من اليأس والإحباط أثار في النفوس وساوس وشبهات وتساؤلات مفادها: ألسنا مسلمين؟ أليس أعداؤنا هم أعداء الله من

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٥٦٤).

الكفـار والمنافقين؟ أليس الله على كل شيء قدير؟ فلماذا لا ننتصر عليهم؟ ولمـاذا يمكن لهم علينا؟ وغير ذلك من السـؤالات التـي تنم عن خلل في الفهم وضعف إيمان، وإساءة ظن بوعد الله ﷻ. وهذه التساؤلات: إما في الضمير، أو تظهر على الألسن.

ومنشأ مثل هذه الظنون إنما هو الجهل بالله ﷻ والجهل بأسمائه الحسنى ومعانيهـا وآثارهـا، والجهل بسـنن الله ﷻ في التغيير والهزيمـة والنصر، وفي تصريف الأحداث، فلعل في هذه الرسالة إسهامًا في كشف الشبهات، وبيان الحق والوقوف فيها على بيان التفسير الشرعي لهذه الأحداث والموقف منها.

الأمر الثـاني: الحاجة إلى بيان الفرق بين إرادة الله ﷻ الكونية القدرية وإرادتـه الدينيـة الشرعية، وقد سـبق بيـان أن من أصـول العقيدة الإيمان بالقـدر، وأن شـيئاً لا يكـون في ملـك الله ﷻ إلا بعلمـه وإرادتـه وإيجاده وحكمتـه، ولكن من هذه المقضيات ما يريده سـبحانه كوناً وقدراً لحكمة بالغـة، وإن كان لا يرضاه ولا يريده ديناً وشرعاً، بل أمر بتجنبه ومدافعته ديناً وشرعاً، كما هو الحاصل اليوم من نشر للكفر وصد عن سبيل الله ﷻ، وفشو للظلم والعدوان، فقد أراد الله ﷻ ذلك كوناً وقدراً لحكمة الابتلاء، ولكنـه أراد ديناً وشرعاً اجتنـاب ذلك ومدافعتـه ومجاهدته، قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] وقـال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلام جميل في تجلية هذه الحقيقة أسوقه بشيء من الاختصار. قال رحمه الله: (فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويُكَوِّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم.

فاعلم أن »المراد« نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير، فهو مرادٌ، إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصودًا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته. وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده. فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، ومراد له من حيث إفضائه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران: بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما.

الأمر الثالث: بيان الموقف الشرعي إزاء هذه الأحداث والفتن، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن تجاهها حتى لا يسقط في الابتلاء، وما هو المطلوب اتخاذه شرعاً من المواقف والأعمال، وذلك في ضوء السنن الربانية في تفسير الأحداث؟ ويقابل ذلك ذكر المواقف والممارسات الخاطئة التي ظهرت في هذه الأحداث وتفسيرها وطرق مواجهتها.

الأمر الرابع: التلبيس والتضليل الشديدان اللذان يمارسهما إعلام الكفار والمنافقين، مستغلين ضغط هذه الأحداث في إضلال الناس وحرفهم عن الصراط المستقيم، مستخدمين في ذلك وسائل الإعلام المختلفة في إثارة الشبهات والحرب النفسية الموجهة للمسلمين، ليوقعوهم في مزيد من الإحباط والهزيمة النفسية، وسعيهم في زعزعة الثوابت وأصول الاعتقاد في نفوس الناس، حتى أصبحنا نفاجأ بتغيرات في المفاهيم والمواقف عند كثير من الناس، فكان لزاماً على كل مقتدر من أهل العلم وطلابه مواجهة هذا التلبيس وكشفه عن الناس ورد شبهات المشبهين وضلالات المضلين.

الأمر الخامس: الحاجة إلى بيان أسباب النصر وأصول التمكين، وبيان أسباب الهزيمة وإدالة الأعداء، والحكمة من تأخير النصر على المسلمين، لأن في خفاء ذلك تثور الوساوس والشبهات. وبالعلم بها تطمئن النفوس المؤمنة، وتسعى للأخذ بالأسباب الشرعية والسنن الكونية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه، وألهم الرسول ﷺ للأخذ بها في طلب النصر والتمكين لهذا الدين.

ولأجل هذه الأسباب والدوافع وغيرها أكتب هذه الرسالة إبراءً للذمة ونصحاً للأمة، وجهاداً ودفعاً بالكلمة، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم، ونافعة لي ولإخواني المسلمين.

ويمكن تقسيم الكتاب إلى الفصول الآتية:

الفصل الأول: ذكر بعض الآيات الدالة على حتمية الصراع بين الحق والباطل والحكمة من ذلك.

الفصل الثاني: أنواع الغزو الذي يتعرض له المسلمون اليوم في بلدانهم.

الفصل الثالث: اختلاف المواقف من غزو الأعداء وصوره المختلفة.

الفصل الرابع: الموقف الحق في صد هذا الغزو والعدوان.

الفصل الخامس: تنبيهات مهمة لابد منها.

الخاتمة